العرب
الأربعاء 2020/12/23
السنة 43 العدد 11920

التجاعيد تكسو أشهر شوارع بغداد

ساعاتي شاهد على حركة الزمن في الشارع

ساعاتي يختزل تغييرات الزمن على شارع الرشيد في بغداد

الساعات اليدوية لم تفقدها التكنولوجيا بريقها بل تغيّرات تشهدها المدينة

يعدّ شارع الرشيد من أقدم شوارع بغداد وأشهرها التي يعرفها كل عراقي مرّ من العاصمة، وبقي الشارع يذكّرهم بالتاريخ والثورات والحركة التجارية والثقافية التي يلخصها ساعاتي ظل صامدا يضبط آلات الزمن، ولم يغادر المكان الذي فقد بريقه وتهاوت عمارته.

بغداد - يواظب يوسف عبدالكريم على فتح محله لتصليح الساعات يوميا في شارع الرشيد بوسط بغداد، ليواصل ممارسة مهنة ورثها عن والده وجدّه، صامداً في وجه التغيّرات التي مرّت على الشارع العريق.

عند العبور في شارع الرشيد، لا يمكن تجاهل متجر يوسف عبدالكريم الصغير وواجهته المكسوّة بالغبار. ومن خلف الزجاج، تتراءى المئات من الساعات من أزمنة مختلفة، بألوان وتصاميم متنوعة، وضعت في كافة أرجاء المتجر دون ترتيب واضح.

في الداخل، يجلس عبدالكريم البالغ من العمر 52 عاما والمعروف بـ"أبويحيى" على كرسيه أمام مكتب خشبي قديم، محاطا بالساعات من الجهات الأربع.

تنتشر الساعات في كل مكان، داخل صناديق بلاستيكية على الأرض وفي علب كرتونية على الرفوف وداخل حقائب مختلفة، ما يجعل التنقل داخل المتجر الضيّق مهمة صعبة، لكن الرجل يعرف تفاصيله ومكان كل ساعة عن ظهر قلب.

بدأ عبدالكريم تصليح الساعات في سنّ الحادية عشرة بعد وفاة جدّه الذي أسس المتجر قرابة العام 1940. وتعلّم المهنة من والده على مدى أعوام قبل أن يتقاعد هذا الأخير ويأخذ عبدالكريم مكانه.

يقول الرجل الخمسيني، إن شارع الرشيد كان يعجّ بالعشرات من محلات تصليح وبيع الساعات خلال الثمانينات، لكنها باتت تعد على أصابع اليد الواحدة الآن.

ويضم الشارع الذي كان ذات يوم مركزًا ثقافيًا نشطًا في قلب بغداد، ويبلغ طوله 4 كيلومترات، جوامع تراثية، وأسواقا قديمة مشهورة هي سوق هرج وسوق السراي وسوق الصفافير والشورجة وشارع المتنبي وخان مرجان، والمتحف البغدادي.

> شارع الرشيد تأسس مطلع القرن الماضي ليكون إحدى أولى الجادات الحديثة في البلاد ومسرحا لثورة العراقيين ضد الاستعمار البريطاني

قد يكون للتكنولوجيا دور في تراجع الإقبال على الساعات اليدوية، لكن عبدالكريم ينسب المسؤولية أيضا إلى التحولات العميقة التي شهدتها المدينة.

مع ذلك، يرفض عبدالكريم فكرة أن الساعات صارت شيئا من الماضي، ويستدل على ذلك بتدفق الزبائن على المحل أغلب ساعات النهار، ويعتبر أن "الأناقة تبدأ من الساعة".

يزور المتجر أشخاص من أعمار وانتماءات مختلفة، من الباحثين عن ساعات زهيدة إلى المولعين بجمع أخرى ثمينة وبينهم وزراء ومسؤولون سابقون، ويؤكد عبدالكريم بفخر، أن "الكل يجد ضالته هنا".

ويرجع الرجل كثرة زبائنه إلى الثقة التي بناها طوال عقود.

يرى هذا الساعاتي صاحب تقاسيم الوجه وحركات الجسد الهادئة، أن ديكور محله "الذي لم يتغير منذ نحو 50 عاما" يشكّل عنصر جذب أيضا، وهو لا ينوي تحديثه "للحفاظ على هوية المكان".

يصلح عبدالكريم نحو خمس ساعات يوميا، لكنّه يقول إن نظره في تراجع، ويقدّر أنه سيضطر إلى التقاعد "خلال خمسة أعوام على الأكثر"، مع أنه يريد مواصلة العمل "أطول ما يمكن".

على الرغم من ذلك، لا يبدو أن مستقبل المحل الأقدم في شارع الرشيد مهدد، إذ يعكف عبدالكريم على تدريب ابنيه يحيى (24 عاما) ومصطفى (16 عاما) على أمل أن يخلفه أحدهما وأن ينقل هذا الإرث العائلي إلى أحفاده.

يبدو ولع عبدالكريم بمهنته واضحا في كلامه، لكنه يكشف أيضا تمسكا بشارع الرشيد "المختلف عن بقية مناطق بغداد".

وتأسس الشارع مطلع القرن العشرين ليكون إحدى أولى الجادات الحديثة في البلاد، وتغيّر اسمه أكثر من مرة ليستقر في الثلاثينات على "الرشيد" نسبة إلى الخليفة العباسي هارون الرشيد.

ينفخ الرجل دخان سيجارته وهو يستذكر بحنين معالم الشارع وأجواءه خلال شبابه في الثمانينات والتسعينات.

ويتحدث مطولا عن دور السينما والمسارح والمقاهي والمتاجر "التي لا تغلق أبوابها ليلا" والزبون الذي باعه ساعة في الثالثة فجرا.

يقول إنه كان يبيع ويصلح "ما يصل إلى 500 ساعة كل أسبوع" في الثمانينات، قبل أن تتراجع كثافة العمل في العقد التالي نتيجة العقوبات الاقتصادية التي فرضت على البلاد، لكن ذلك على شدّته لا يقارن بما جرى إثر الغزو الأميركي وإطاحة نظام الرئيس صدام حسين عام 2003.

ومنذ بداية القرن الماضي، كان الشارع مسرحا لثورة العراقيين ضد الاستعمار البريطاني، وبقي منذ ذلك التاريخ ساحة للتحركات الشعبية ضد الأنظمة السياسية في البلاد.

يخوض المحتجون الشباب اليوم احتجاجات للتنديد بالفساد، وشح الخدمات وندرة الوظائف بالرغم من ثروة العراق النفطية الهائلة.

وعاش عبدالكريم على غرار بقية العراقيين "معاناة الصراع الطائفي" الذي بلغ ذروته بين عامي 2006 و2008.

كان وصوله إلى المحل يتطلب منه "قطع خمسة كيلومترات سيرا على الأقدام" نتيجة غلق الطرقات واضطراره إلى تغيير مكان سكنه.

وأدى ذلك إلى "تراجع عدد الزبائن بنحو 90 في المئة مع مغادرة كثيرين لبغداد"، لكنه حرص حينها على مواصلة فتح المتجر قدر الإمكان.

يخبر أنه تدريجيا "انمحت معالم الشارع" و"انتقل أغلب أصدقائي" إلى خارج البلد أو نحو مناطق تجارية جديدة في العاصمة بعد أن باعوا محلاتهم التي تحول معظمها إلى تجارة الزيوت وقطع غيار السيارات والأدوات الكهربائية.

أما الشقق ذات الطراز البغدادي العتيق المصفوفة فوق المتاجر والتي كانت تسكنها غالبية من اليهود مطلع القرن العشرين، فقد صار أغلبها خاويا ومتداعيا لغياب الترميم والعناية.

يقول يوسف عبدالكريم بحسرة "كنت أتمنى أن يصبح الوضع أفضل بعد سقوط نظام صدام حسين، لكنه تغيّر إلى لأسوأ"، رغم ذلك، يؤكد "سأبقى متمسكا بمهنتي".

نوادي الثقافة ودورها ذهبت ريحها

شجرة الميلاد بلا بهجة في بيروت

بيروت - وكأنها تقطر حزنا، تخلت شجرة الميلاد في بيروت هذا العام عن زينتها، ليستقبل سكان المناطق المتضررة من انفجار المرفأ أول احتفالات عيد الميلاد بخيبة كبيرة وضائقة مالية وأطلال خراب.

ورغم بدء انحسار مظاهر الدمار الذي خلفه انفجار المرفأ في الـ4 من أغسطس الماضي، والمساعي الحكومية والأهلية لتجاوز الأضرار المادية والنفسية للحادث، لا يزال الفقر والحزن يخيمان على بيروت.

ويقترب لبنان من الوصول إلى نهاية عام يعدّ الأسوأ منذ الحرب الأهلية (1975 – 1990) بين هبوط عملة وارتفاع التضخم إلى مستويات تاريخية وشحّ حاد في وفرة النقد الأجنبي.

بحزن شديد، قال إلياس أفتيني، وهو صاحب محل تجاري دمره حادث الانفجار، "العيد القادم ليس عيدا على الإطلاق، لم نضع الزينة فقد خسرنا أحباءنا وحتى اليوم هناك عائلات خارج منازلها".

وأضاف أفتيني (50 عاما)، "في هذا العيد سنتجرع كأس المرارة بفقدان أهلنا ودمار ممتلكاتنا، في ظلّ غياب أيّ مساعدة جديّة للدولة أو المجتمع المدني".

وتساءل مستنكرا، "كيف نحتفل بعيد الميلاد ونحن لا نعلم إن كنا نستطيع تأمين احتياجات أولادنا من الخبز يوم غد أم نفشل في ذلك؟".

واختتم قائلا، "نحن لا نزال نُرمّم ما هُدِم جرّاء الانفجار على نفقتنا الخاصّة في ظلّ أسوأ أزمة ماليّة خيّمت على لبنان".

بدورها أعربت سهام بكيان، وهي وريثة لمحل دمره الانفجار، عن ألمها وحزنها الشديدين على الحال التي آلت إليها معظم الأسر في بيروت.

وقالت بكيان (65 عاما)، "قمت بإجراء أعمال تأهيل طفيفة للمحل الذي ورثته عن أجدادي على نفقتي الخاصة (..) عيد الميلاد هذا العام سيكون مثل أي يوم آخر".

وتابعت، "لا نزال في بيروت تحت وقع صدمة الانفجار الذي دمّرنا بكل معنى الكلمة".

واعتادت بيروت خلال شهري ديسمبر ويناير من كل عام، استقبال عيد الميلاد بالاحتفالات والزينة والموسيقى، ولاسيما في الشوارع التراثية، وأبرزها الأشرفيّة ومار مخايل والجميزة بالعاصمة.

وبلهجة موحية عن نفاد صبر قالت ميريام الشدياق (40 عاما)، "أُرهقنا نفسيا، بعد الانفجار ليس هناك عيد"، مضيفة، وهي تجلس على أريكة صغيرة أمام محلها الذي دمره الانفجار، "تعرّضنا للموت، ولا نشعر بالفرحة نهائيا، والذي نشعر به في هذه المناسبة هو شعور ديني فقط".

وأضافت، إنّ "حركة الشراء أقل بكثير من السنوات الماضية، ففي مثل هذا الوقت من كل سنة، كان الزبائن يأتون بالعشرات والمئات".

شجرة الميلاد يلفّها حزن المرفأ

بدوره قال وديع سماحة، "البناية التي أقطن بها تضرّرت بالكامل من انفجار المرفأ، وأجريت جراحة دقيقة في الرأس بعد سقوط سقف المنزل عليّ".

وتابع سماحة (60 عاما)، "وضعت شجرة العيد هذا العام، لكن دون بهجة، حتى اليوم منزلي متضرّر ولا أحد ينظر إلى أحوالي".

ووصف سماحة عيد الميلاد هذا العام بـ"الكارثي" قائلا، "حتى اليوم أنا غير قادر على تصليح نوافذ وأبواب المنزل التي دمرها انفجار المرفأ".

وتحت شعار "على بيروت أن تنهض"، قالت الناشطة المدنية ميساء منصور، من منظمة "غراس روت"، "الشعور بالمرارة يطغى على هذا العيد في بيروت، لكنّ أملنا في مستقبل أفضل للبلاد هو الأقوى".

وأوضحت منصور "نكرس اهتمامنا في المنظمة (غير حكومية) على المناطق المتضرّرة، ونسعى إلى نشر الفرح في مناسبة العيد من خلال أنشطة ترفيهيّة يوميّة".

واختتمت حديثها قائلة، "نحاول دعم سكان المناطق المتضررة في بيروت، للتخفيف من أوجاعهم، ولا نزال نلاحظ التضامن والتلاحم بين اللبنانيّين الذين يهبون لتقديم الدعم والمساندة للمتضررين".

وتبدأ مظاهر الاحتفالات بعيد الميلاد في لبنان في منتصف ديسمبر، وتبلغ ذروتها ليلة الـ24 من الشهر نفسه حسب التقويم الغربي، وفي ليلة 6 يناير حسب التقويم الشرقي.

وتحتفل الطوائف المسيحيّة بعيد الميلاد كاحتفال ديني وثقافي، ويترافق مع احتفالات دينية واجتماعية أبرزها وضع شجرة عيد الميلاد وتبادل الهدايا، لكن تنازل العديد من اللبنانيين في بيروت عن الكثير من مظاهر الاحتفال بسبب الضائقة الاقتصادية.

> العديد من اللبنانيين تنازلوا في بيروت عن الكثير من مظاهر الاحتفال كشراء الهدايا والملابس الجديدة

وقالت جوزيفين وهي أم لثلاثة أطفال إن الوضع الاقتصادي للبلاد أثر على قدرتها الشرائية، حتى إنها صارت لا تستطيع شراء ملابس جديدة ولا هدايا لأطفالها، مضيفة، "تأمين الطعام همّ".

وقالت سيدة أخرى تدعى سمر، إنها اضطرت وأفرد عائلتها إلى أن يستغنوا هذا العام عن بعض العادات التي كانوا يتبعونها خلال العيد بسبب الأزمة في البلاد. مشيرة إلى أنهم "قللوا من عدد الهدايا".